
البراهين الجليّة
على كفر الشعوب العربية
للشيخ
محمّد بن سعيد الأندلسي


رسالة
البراهين الجليّة
على كفر الشعوب العربية



العنـــوان: البراهين الجلية على كفر الشعوب العربية

الكاتـــب: محمد بن سعيد الأندلسي (أبو همام الإدريسي)

النـاشــــر: سراج الطريق

الصفحات: ٢٥ صفحة

المقـــاس: ١٧.٦ × ٢٥ سم

الْأَصْدَارُ الثَّانِي

شَوَّال

١٤٤٦هـ






بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين، أما بعد:

فالكثير من الناس في هذا الزمان–سواء من طبقة المثقّفين أو المحسوبين على العلم–يعتقدون أنّنا لمّا كفّرنا هذه الشعوب العربية الوثنية بالعموم، كان ذلك حُكمًا منّا بالتشهّي، أو من ضغط الواقع، أو بسبب قسوة التجارب السابقة وشدّتها، أو هي أفكار تُعشّش في السجون، فمن أسوارها تخرُج تلك الأحكام المرسَلة! لذلك يعدّون هذه العقيدة الغريبة على أذواقهم ضربًا من الغلو والتطرف، فلا يكلّفون أنفسهم النظر في تأصيلاتها وأدلتها؛ لأنهم لا يريدون اعتناقها ابتداءً–ولو كانت حقًّا في ذاتها–، فهؤلاء لا سبيل للحق إليهم لإعراضهم: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[1]. ونحن نخاطِب في هذه الرسالة من ألقى السمع لسُلطان الحق؛ عسى اللّٰه أن يشرح صدره لصحيح الإسلام.

وفي هذا المختصَر دعوةٌ للتائهين، وتثبيتٌ للسالكين، وتلقينٌ لهم مسالك الحُجة ودلائل المحجة؛ حتى يكون منارًا للمسلمين، وسلوة للغرباء الموحدين. وقد التزمتُ فيه أسلوب التبسيط والتقريب؛ حتى يكون في متناول جميع الطالبين.

واللّٰه الهادي إلى سبيل المؤمنين.

[١] سورة الأنبياء: ٢٤

اعلم وفقك الله لتوحيده: أنّ هذه الشعوب قد دخلَت في دين الطواغيت أفواجًا، فصار الكفر عامًّا غير مقتصرٍ على الطبقة الحاكمة وجنودها وأوليائها، فإنّ الطواغيت قد مرّت عليهم أزمان مديدة وعقود عديدة وهُم يحكُمون هذه الشعوب جيلًا إثر جيل بحُكم الجاهلية، ويعملون عبر المدارس والمنابر والإعلام والجوامع على تنكيس الفطرة السوية، وتبديل مضمون الديانة الحنيفية، وترسيخ «الإسلام المعتدل» الذي رضيَه الغرب لهم دينًا.

فصارت جماهير الشعوب على دين ملوكها وطواغيتها وحكّامها؛ فانتشر بينهم شرك القبور والقصور، وغُيب فيهم الإسلام الحنيف، وصارت الديمقراطية منهجًا لهم في الحياة لا يبغون عنها حِوَلًا، بل يناضلون في سبيلها، فيخرجون وينتفضون بالملايين في «ساحات الحرية»، يطالِبون بالدولة المدنيّة، ويتعرّضون في سبيل شرعيّتها للسجن والتعذيب والنكال.

فتثور الشعوب بين الحين والغرّة، في مسيرات سلمية؛ لتخلع طواغيتها، وتسترجع الحاكمية التي تفرَّد بها المماليك، وتطالِب بالحق المغصوب في الحُكم والتشريع؛ لتختار من الطواغيت من يرتقي بها في سلّم الحريات، ويحقق لها حياة مدنية رغيدة.

لقد استيقظَت الشعوب، وعرَفت حقوقها المدنية، وصارت تعلم يقينًا أنّ الدين الذي هي عليه –الديمقراطية– يعطيها الحق في صُنع سياسة البلاد؛ فلها الحق في التشريع عبر تنصيب نوّابها في البرلمان، ولها الحق في الحُكم باختيار حكّامها في المحافظات والبلاد، فالحُكم والتشريع من الشعب وإلى الشعب، فالشعب هو الحاكم والمشرّع في هذا الدين الجديد.

طبعًا هذا ما تمارسه الطبقة المتديّنة في هذه الشعوب «كالإخوان»، فضلًا عن الديمقراطيين والليبراليين والعلمانيين بأحزابهم وأتباعهم وأنصارهم، ومن يثبّت عروش العلمانية –كالمداخلة والصوفية ودُعاة البلاط الملكي–، فهل الشعوب إلا أتباعًا وأنصارًا لهؤلاء؟! هل الشعوب إلا أجيالًا تتخرّج من المدارس الوضعية التي تُلقّنهم تاريخ الطواغيت وتمجيدهم، وتدرّسهم التربية المدنية عبر أطوار التلقّي، فتُرسّخ فيهم كافة المبادئ التي تجعل الفرد «مواطنًا صالحًا» في المجتمع الجاهلي، قادرًا على أن يُشارك بفعالية في كافة الأنشطة والمناسبات الوطنيّة والعملية السياسية –الحُكم والتشريع–، وتحقيق مبادئ الولاء للوطن والدفاع عنه ونصرته، وتُعرّفهم بالأنظمة السياسية المتّبَعة من قبَل الدولة، ممّا يزيد ولاءهم للقوانين والأنظمة والأعراف الجاهلية، ويضمن التزامهم بها وانصياعهم لها؟!

فخلاصة هذه الشعوب: هي أجيال نشأت في المدارس الوضعية، فانتكسَت فطرتها، وتشبّعت بالمعاني الوضعية العلمانية، فصار الإسلام عندها محصورًا في شعائر وأذكار لا يخرج من صوامع المساجد، كما أنّ النصرانية المحرّفة هي ترانيم وتعاويذ تُردَّد في الكنائس والمعابد. أمّا في البيوت والأسواق والشوارع والأزقّة وعموم الديار، فالحُكم فيها لغير الله تعالى الواحد القهّار؛ فالأضرحة والمقامات والمزارات تُصرف لها العبادة والدعاء من غير نكير أو تكفير، والمحاكم عامرة تَحكم بشريعة الطاغوت من دون الله العلي القدير، والبرلمانات تُحلّل وتُحرّم وتُشرّع وتَسُنّ اللوائح والقوانين، والشعوب ساكنة خاضعة متّبِعة منقادة دون مدافَعة أو مناجَزة أو مناكَفة، فلا تُنكر شركًا ولا تعرف توحيدًا. فارتفع الإسلام عن الأرض، وحلّت الجاهلية فيها بأوضاعها: العبادة، والحُكم، والولاية، والقيَم، والأخلاق.

هل تعلم أنّ من المناطات الكبرى التي كفّر بها القرآن أهل الكتاب، هي اتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله في الحُكم والتشريع؟ تمامًا كما هو في هذه الديار، لكن بنسخة معدّلة موسّعة، في جعل أراذل الشعوب مصدرًا للتشريع، كما بيّنا في آلية الحُكم والتشريع في هذه الديار.

ولقد دعاهم المولى تبارك وتعالى إلى البراءة من الأرباب بين يدَي الإسلام، فإن لم يفعلوا فليسوا مسلمين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[١]، فأمَر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم، أن يدعوهم إلى الكلمة السواء، وهي: «لا إله إلا الله»، وذكَر مدلولها الذي يتحقق به إسلامهم: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

وقد أخبر الله أنّ أهل الكتاب اتخذوا السادة والعلماء والأشراف والأمراء أربابًا، يتلقّون منهم الشرائع، ويُطيعونهم في تحليل ما حرّم الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢]، قال عبد الله بن عباس: «لم يأمروهم أن يسجدوا لهم، ولكن أمروهم بمعصية الله، فأطاعوهم، فسمّاهم الله بذلك أربابًا»[٣].

[١] سورة آل عمران: ٦٤
[٢] سورة التوبة: ٣١
[٣] تفسير الطبري - دار التربية والتراث: برقم ١٦٦٤١

وسمّى اللهُ الطاعة في التحليل والتحريم شركًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[١]، «أي: حيث عَدلتُم عن أمرِ الله لكم وشرعِه، إلى قولِ غيرِه، فقدّمتم عليه غيرَه، فهذا هو الشرك»[٢].

وهذا الذي ذكره المولى في هذه الآيات –بأوضح الألفاظ الدالة على الشرك بالله، وعبادة الأرباب بالطاعة، واتّباع الطواغيت المشرّعين–، واقعٌ من عموم الناس في هذا الزمان وجمهورهم، لا ينكره إلا جاهل أو جاحد أو مُكابر. وهذا يقتضي الحُكم على عموم الناس بالشرك في الطاعة؛ لاتخاذ الأرباب في التحليل والتحريم، وهو واضح جليّ بمنطوق القرآن والأثر.

قال الشنقيطي: «ويُفهَم من هذه الآيات، كقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾[٣]، أنّ متّبعي أحكام المشرّعين، غيرِ ما شرَعه الله، أنهم مشركون بالله، وهذا المفهوم جاء مبيَّنًا في آيات أُخر، كقوله في من اتّبع تشريع الشيطان في إباحة الميتة بدعوى أنها ذبيحة الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ

[١] سورة الأنعام: ١٢١
[٢] تفسير ابن كثير – دار الكتب العلمية: ٣/ ٢٩٥
[٣] سورة الكهف: ٢٦

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[١]، فصرّح بأنهم مشركون بطاعتهم، وهذا الإشراك في الطاعة، واتّباع التشريع المخالف لمَا شرَعه الله تعالى، هو المُراد بعبادة الشيطان في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[٢]، وقوله تعالى عن نبيّه إبراهيم: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾[٤]، أي: ما يعبدون إلا شيطانًا، أي: وذلك باتّباع تشريعه، ولذا سمّى الله تعالى الذين يُطاعون فيما زيّنوا من المعاصي: شُركاء، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾[٥] الآية، وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم هذا لعَديّ بن حاتم رضي الله عنه، لمّا سأله عن قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[٦]، فبيّن له أنهم أحلّوا لهم ما حرّم الله،

[١] سورة الأنعام: ١٢١
[٢] سورة يسٓ: ٦٠-٦١
[٣] سورة مريم: ٤٤
[٤] سورة النساء: ١١٧
[٥] سورة الأنعام: ١٣٧
[٦] سورة التوبة: ٣١

وحرّموا عليهم ما أحلّ اللّٰه، فاتّبعوهم في ذلك، وأنّ ذلك هو اتّخاذهم إياهم أربابًا. ومن أصرح الأدلة في هذا: أنّ اللّٰه جل وعلا، في سورة النساء، بيّن أنّ من يريدون أن يتحاكموا إلى غير ما شرَعه اللّٰه، يَتعجّب من زعمهم أنهم مؤمنون؛ وما ذلك إلا لأنّ دعواهم الإيمان مع إرادة التحاكم إلى الطاغوت، بالغة من الكذب ما يحصل منه العَجب، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[١].

وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا، يَظهر غاية الظهور، أنّ الذين يتّبعون القوانين الوضعية، التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه، مخالَفة لمَا شرعه اللّٰه جل وعلا على ألسنة رسله صلى اللّٰه عليهم وسلم، أنه لا يشكّ في كُفرهم وشركهم إلا من طمس اللّٰه بصيرته، وأعماه عن نور الوحي مثلهم»[٢].

هل تعلم يا طالب الحق: أنّ الامتناع عن شريعة من الشرائع هو كُفر من عموم طائفة الامتناع؟ فما بالك بالامتناع عن تحكيم الدين كله؛ كالامتناع عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الدين، وتطبيق الحدود، وجباية الزكاة، وجهاد الكفار، وتقسيم

---

[١] سورة النساء: ٦٠

[٢] أضواء البيان للشنقيطي - دار الفكر: ٣/ ٢٥٩

الغنائم، وحفظ جناب التوحيد، والنهي عن الشرك والتنديد؟!
فيعتقد السفهاء أنه إذا أَذِنَ لهم الطواغيت بالصلاة في المساجد، ولم يمنعوهم منها، فهي دار إسلام! وهذا معناه أنّ الدول الأوروبية التي تَأذن بذلك، هي دُور إسلام على ميزان هؤلاء.

والناظر في حال الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وارتداد العرب بمناطات مختلفة: فمنهم من منع الزكاة وأقام الصلاة، ومنهم من أشرك مسيلمة الكذاب في النبوة، ومنهم من رجع إلى عبادة الأوثان، فقال أبو بكر رضي الله عنه: «وأمّا من ارتدّت من هؤلاء العرب، فمنهم من لا يصلّي وقد كفر بالصلاة، ومنهم من يصلّي وقد منع الزكاة، ولا والله يا أبا حفص ما أفرّق بين الصلاة والزكاة؛ لأنهما مقرونتان»[١]. فحَكم عليهم الصحابة بعموم الكفر، إلا من أظهر البراءة ممّا أحدثه قومه من شركٍ وكُفر امتناع -كما وقع من ثمامة بن أثال واليشكري وغيرهم-.

وهذا أول إجماع وقع بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو من أوضح الأدلة على تنزيل عموم الكفر على ديار الممتنعين عن شريعة من الشرائع. والدول العربية ما هي إلا دورٌ ممتنعة عن الحُكم بالتوحيد، والنهي عن الشرك، وتطبيق الشريعة، بجيوش هي من نفس الشعب.

[١] الردة للواقدي - دار الغرب الإسلامي: ص ٥١

وقد رأينا هذه الشعوب تقاتِل -بأفراد الطائفة الممتنعة- من يدعوها إلى الحُكم بالشريعة، فإن لم يكتفِ الطواغيت بمن في الثكنات، أخذوا جنود الاحتياط من الشباب الذين أعدّوهم آنفًا في الخدمة الوطنية، وزجّوا بهم إلى ساحات القتال. فصار الشعب بذكوره القادرين على القتال، جنودًا مُتعهّدين بنصرة دين الطاغوت، والقتال تحت رايته، والإعداد لذلك. إن لم تكن هذه الشعوب هي الطائفة الممتنعة، فمن إذن؟! وإن لم يكن هذا من الكُفر العام، فما هو إذن؟! أليست الشعوب تقاتِل بجيشها -الذي هي من تُشكِّل أفراده- من يدعوها إلى حاكمية الكتاب، وتسمّيهم إرهابيين ومتطرفين؟!

قال ابن تيمية: «وقد اتّفق الصحابة والأئمة بعدَهم، على قتال مانعي الزكاة، وإن كانوا يصلّون الخَمس، ويصومون شهر رمضان، وهؤلاء لم يكن لهم شبهة سائغة، فلهذا كانوا مرتدّين، وهُم يقاتلون على منعها، وإن أقرّوا بالوجوب كما أمَر الله»[١].

هل تعلم يا باغي الخير: أنّ الدار أو القوم أو المجتمع، إذا تفشى فيهم الشرك والكفر دون نكير أو نذير، وعُطّلت بينهم معالم الدين وشرائع الإسلام، واتّبع الناس دين الملوك المبدِّلين -بالطاعة والاتّباع في الحُكم والتشريع-، فإنه يُحكم عليهم بعموم الكفر على الأعيان، إلا من أظهر خلاف ما عليه القوم من الكفر بالله؟

[١] الفتاوى الكبرى لابن تيمية - دار الكتب العلمية: ٣/ ٥٤١

وذلك بإجماع الصحابة، كما نقله عنهم أبو عبيد القاسم بن سلّام، في سياق استدلاله على أنّ العمل ركن في الإيمان، فقال: «والمصدّق لهذا، جهاد أبي بكر الصديق رحمة الله عليه، بالمهاجرين والأنصار، على منع العرب الزكاة، كجهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أهل الشرك سواء، لا فرق بينها في سفك الدماء، وسبي الذرية، واغتنام المال؛ فإنما كانوا مانعين لها غير جاحدين بها»[١].

واتفق عليه المتأخرون، كما قال حمد بن عتيق: «ومن له مشاركة فيما قرّره المحقّقون، قد اطّلع على أنّ البلد إذا ظهر فيها الشرك، وأُعلنت فيها المحرّمات، وعُطّلت فيها معالم الدين، أنها تكون بلاد كفر، تُغنم أموال أهلها، وتُستباح دماؤهم. وقد زاد أهل هذه البلد، بإظهار المسبّة لله ولدينه، ووضعوا قوانين يُنفِذونها في الرعيّة، مخالِفة لكتاب الله وسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم، وقد علمتَ أنّ هذه كافية وحدها في إخراج من أتى بها من الإسلام»[٢].

وإذا صارت الأقوام إلى الشرك والكفر العام، فلا تصحّ البراءة من المشركين إلا بتكفير الأقوام بالعموم؛ لأنّ المشركين قد صاروا في صورة الأقوام، فلا تتحقّق البراءة إلا بتكفيرهم، ولا يصحّ إسلام المرء حتى يحقّق البراءة من الشرك والمشركين؛ بدلالة النصوص

[١] الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام - مكتبة المعارف: ص١٧
[٢] الدرر السنية: ٩/ ٢٥٧

المفسّرة لكلمة التوحيد، وبإجماع أهل السنّة والجماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم. كما حكى الإجماع عبد الرحمن بن حسن، حيث قال: «وأجمعَ العلماء سلفًا وخلفًا، من الصحابة والتابعين والأئمة، وجميع أهل السنّة، أنّ المرء لا يكون مسلمًا إلا بالتجرّد من الشرك الأكبر، والبراءة منه وممّن فعله، وبُغضهم ومعاداتهم بحسب الطاقة والقدرة، وإخلاص الأعمال كلها لله»[١].

فالبراءة من المشركين في صورة شرك الأقوام وعموم الكفر في الديار، تتحقّق بالبراءة من القوم وتكفيرهم، ودلّت عليه نصًّا آية الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[٢]. والآيات الواردة في بيان ملة إبراهيم، وحقيقة دعوة الرسُل، والمفسّرة للتوحيد، كلها خطاب من الرسُل إلى أقوامهم المشركين، بالبراءة والتكفير، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٣].

[١] الدرر السنية: ١١/ ٥٤٥
[٢] سورة الممتحنة: ٤
[٣] سورة الزخرف: ٢٦-٢٨

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١].

وسياق قصص الأنبياء في سورتَي الأعراف وهود، حيث يتكرّر قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[٢].

هل تعلم يا مريد الحق: أنّ القضيّة عند صاحب الفطرة السليمة، في غاية الصفاء والوضوح؟ قومٌ اجتمعوا في أرضٍ لها حدود فهي الوطن، لها دستور فهو الحَكَم، لها شعار فهو العَلَم، يُعقَد له الولاء وعليه البراء، يُعظَّم بالقنوت، ويقاتَل تحته في صمود، وكل ذلك تحت شعار: «الدين لله والوطن للجميع». وقد جعلوا سَنَّ القوانين والحاكمية في أنفسهم على جهة المداوَلة في السلطان، فمن اختارته الأغلبية فهو الحَكَم، دانوا له بالطّاعة والاتّباع إلى أجَل محدود، ونصّبوا القضاة والحاكمين يحكمون بما يَسنّه المشرّعون الذين يُمثّلون القوم. وقد سنّوا حريّة الأديان، بل وحدتها، وحرية الاعتقاد -إلا التوحيد-، ونَصبوا للناس قبابًا ومَشاهدًا وقبورًا ومعابدًا، وزيّنوا لهم عبادتها، وحموها بسيف القوم، وأشاعوا الرذيلة، وطمسوا الفضيلة، وأنكَروا المعروف، وأمَروا بالمنكر، ونشروا الشرك والتنديد، وفتَنوا أهل الحق والتوحيد.

---

[١] سورة الأنعام: ٧٨-٧٩

[٢] سورة الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥ | سورة هود: ٥٠، ٦١، ٨٤

فما تركوا من أمر الجاهلية الأولى شيئًا إلا وكان لهم منه أوفر حظٍ وأكمل نصيب، بل تجاوزوا حد الطغيان والتنديد، فكانوا كما قال الله في الأقوام الطاغية: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾[٣].

فإن لم يكن هذا هو الكفر والشرك والطغيان فما هو إذن؟ وإن لم يكن هؤلاء هُم المشركون والكفار والطواغيت فمن إذن؟!

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٤].

هل تعلم يا من ترجو النجاة: أنّ عموم الشعوب اليوم تجهل معنى الطاغوت، وصِفة الكفر به، ولا تعرف التوحيد وأركانه وشروطه وماهيته، ولم تحقّق صفة الإسلام الذي جاء به موكب النور؟

ولا شك أنّ العلم بالمعنى الصحيح للإسلام، شرطٌ لصحة الإسلام وقبوله، فعموم الشعوب تجهل المعنى الصحيح لـ«لا إله إلا الله»، وتفسّرها بتفسير الأشعرية الجهمية بـ«لا صانع ولا خالق إلا الله»، وتعتقد أنّ من نطق بـ«لا إله إلا الله» فهو مسلم، ولا يصحّ تكفيره

[١] سورة الذاريات: ٥٣
[٢] سورة الصافات: ٣٠
[٣] سورة النجم: ٥٢
[٤] سورة الصافات: ١٥٤ | سورة القلم: ٣٦

بحال من الأحوال، ولو فعل ما فعل من صنوف الكفر والشرك، إلا إذا جحد الصانع. ولا تكفّر الطواغيت، وتعتبرهم أولياء أمور تجب طاعتهم، ولا تكفّر المشركين، وتجعلهم أولياءها في الدين. وهذا الذي شبّ عليه الصغير وهرم عليه الكبير، في المدارس والمعاهد والجامعات والمساجد.

وهذا الجهل مستفيض، بل متواتر عنهم، وإذا استفاض الأمر فاشهد به، كما نص على ذلك الإمام أحمد، قال الخلّال: «وأخبرَنا أبو بكر المروذي، في هذه المسألة، قال: قلتُ لأبي عبد الله –أحمد بن حنبل–: أَشهد أنّ فلانةَ امرأةُ فلان، وأنا لم أَشهد النكاح؟ قال: نعم، إذا كان الشيء مستفيضًا فاشهد به. وأَشهد أنّ دار بَخْتَانَ هي لِبَخْتَانَ ولم يُشهدني؟ قال: هذا أمرٌ قد استفاض، اشهد بها له. قال أبو بكر: وأظنّ أني سمعتُه يقول: هذا كمن يقول: إنّ فاطمةَ بنتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أَشهد إنها بنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم. أمّا طارق بن شهاب، يقول، عن أبي بكر: إنه قال لهم: تَشهدون أنّ قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. وما رضي –يعني أبا بكر– حتى شهدوا. قال أبو عبد الله: وهذا أَثبت وأصحّ ما روي في الشهادة»[١].

[١] السنة للخلال – دار الراية: برقم ٤٨١

واعلم أنّ مجرد الانتساب إلى الإسلام، وقول: «أنا مسلم»، ونُطق الشهادتين، مع البقاء على ملة الشرك -وهي ملة الآباء والأجداد والمجتمعات والموروثات-، واستدامتها، وعدم اجتناب الطاغوت وطاعته، ولا البراءة من المشركين وتكفيرهم، لا يصير المرء به مسلمًا، فتكون بذلك دعوى لا تُصحّح إسلامه، ولا يترتب عليها أحكامٌ في دين الله عز وجل، وهو انتسابٌ لا اعتبار له في الشرع، وأهله من أهل الشرك وملة الكفر، سواء بسواء.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[١]، عن الربيع، عن أنس بن مالك: ﴿فَإِن تَابُوا﴾، يقول: «توبتُهم خلعُ الأوثانِ وعبادتِها»[٢]، وعن مقاتل بن حيّان: «﴿فَإِن تَابُوا﴾ من الشرك، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ لَمْ تقتلهم، وكُفَّ عنهم»، وروي عن الضحّاك: «﴿فَإِن تَابُوا﴾ من الشرك»[٣].

[١] سورة التوبة: ١١
[٢] تفسير ابن أبي حاتم - مكتبة نزار الباز: برقم ٩٢٧٢
[٣] تفسير ابن أبي حاتم - مكتبة نزار الباز: برقم ٩٢٧٣

هل تعلم: أنّ الله خَلق الخَلق، وأرسل الرسُل، وأقام الحجج، لإفراده بالعبودية والطاعة؟ «والإسلام: هو الدخول في السِّلم، وهو الانقياد والطاعة»[١]، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢]، قال الطبري: «بالاستكانة، والخضوع له بالطاعة، وإفراد الربوبية له والعبادة، دون الأوثان والأصنام والآلهة... والذي أراد ابن عباس –إن شاء الله– بقوله في تأويل قوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، وحّدوه، أي: أفرِدوا الطاعة والعبادة لربكم دون سائر خلقه»[٣].

فالشعوب اليوم، إنما هي خاضعة منقادة للطواغيت والأرباب الأرضية، تتلقّى منهم الشرائع والأحكام، فقد دخلَت في دينهم أفواجًا، كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فعن أبي هريرة، قال: «تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾[٤]، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليخرجُنّ منه أفواجًا، كما دخلوا فيه أفواجًا»[٥].

فهل يا ترى قومنا مسلمون؟!

---

[١] تفسير البغوي - دار إحياء التراث العربي: ١/ ٤٢١
[٢] سورة البقرة: ٢١
[٣] تفسير الطبري - دار التربية والتراث: ١/ ٣٦٢
[٤] سورة النصر: ١-٢
[٥] مستدرك الحاكم - دار المنهاج القويم: برقم ٨٧٦٨

هل تعلم: أنّ القوم المسلمين هُم الذين لا يعبدون إلا اللّٰه، ولا يشركون به شيئًا، ولا يتّخذون الأرباب في الحُكم والتشريع، ويتّبعون رسُل اللّٰه وما أنزل اللّٰه وشِرعَة اللّٰه، ويأمرون بالمعروف وعلى رأسه التوحيد، وينهون عن المنكر وعلى رأسه الشرك والكفر؟

هذه صفة المسلمين في كتاب اللّٰه، وما كانت عليه الأقوام المسلمة من لدُن نوح عليه السلام. ولا شك أنّ الأقوام اليوم لم يحقّقوا من هذه الأوصاف وصفًا! فهل من لم يحقّق صفة الإسلام يُنسب إليه؟! فكيف يقال عنهم: «مسلمون»، وهُم لم يحقّقوا صفة الإسلام؟ وهل يقال لمن لم يأتِ بصفة الصلاة مُصَلٍّ؟ فقد قال النبي صلى اللّٰه عليه وسلم، للمُسيء صلاته: «ارجع فَصَلِّ فإنك لم تُصَلِّ»[١].

فهُم أقوام ليسوا من دين الإسلام في شيء، هُم أقوام كفار مشركون، كالأمم السابقة المكذّبة، التي طال عليها العهد فغيّرت الدين، وحرّفت التوراة والإنجيل، فكان خطاب اللّٰه تعالى إليها بالتكفير بالعموم.

وكذلك في هذا الزمان الذي رجعَت فيه الديار إلى الجاهلية، فتحقيق ملة إبراهيم يكون كما أمر اللّٰه تعالى في كتابه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ

[١] صحيح البخاري - دار عطاءات العلم: برقم ٧٩٣

مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[١].

فمن حقّق البراءة من قومه، وممّا يعبدون من دون الله، وكفّرهم وعاداهم وأبغضهم، وآمن بالله، واستسلم لله بتوحيده، ولم يشرك بالله شيئًا في العبادة والحُكم والطاعة والمحبة، واجتنب عبادة الطاغوت، واتّبع ما أنزل الله، وكان عبدًا لله في التلقّي والطاعة والاتّباع، لا عبدًا للطواغيت أو وليًّا للكافرين، كما قال تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٣].

فمن أتى بذلك فقد حقّق ملة إبراهيم، واستمسك بالعروة الوثقى والكلمة الباقية.

---

[١] سورة الممتحنة: ٤

[٢] سورة الأنعام: ١٠٦

[٣] سورة البقرة: ٢٥٦-٢٥٧

نسأل الله أن يقيمنا على الملة الغرّاء، ويثبتنا على المحجة البيضاء حتى نلقاه، اللهم أفرغ علينا صبرًا، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، اللهم أحيِنا علماء عاملين ما دامت الحياة خيرًا لنا، واختم لنا بالشهادة في سبيلك دفعًا عن دينك تحت رايةٍ لا غبش فيها ولا كدر، فلا طابت حياة العبيد في دور الشرك والتنديد.



وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه والتابعين.



فخلاصة هذه الشعوب: هي أجيال نشأت في المدارس الوضعية، فانتكسَت فطرتها، وتشبّعت بالمعاني الوضعية العلمانية، فصار الإسلام عندها محصورًا في شعائر وأذكار لا يخرج من صوامع المساجد، كما أنّ النصرانية المحرّفة هي ترانيم وتعاويذ تُردَّد في الكنائس والمعابد. أمّا في البيوت والأسواق والشوارع والأزقّة وعموم الديار، فالحُكم فيها لغير الله تعالى الواحد القهّار؛ فالأضرحة والمقامات والمزارات تُصرف لها العبادة والدعاء من غير نكير أو تكفير، والمحاكم عامرة تَحكم بشريعة الطاغوت من دون الله العلي القدير، والبرلمانات تُحلّل وتُحرّم وتُشرّع وتَسُنّ اللوائح والقوانين، والشعوب ساكنة خاضعة متّبِعة منقادة دون مدافَعة أو مناجَزة أو مناكَفة، فلا تُنكر شركًا ولا تعرف توحيدًا. فارتفع الإسلام عن الأرض، وحلّت الجاهلية فيها بأوضاعها: العبادة، والحُكم، والولاية، والقيَم، والأخلاق.

محمد بن سعيد الأندلسي